أصول الفكر وهواجسه في لزوميات أبي العلاء المعري: دراسة وصفية تحليلة

The origins of thought and its obsessions in the luzumiyat of Abu Al Alaa Al Ma'ari : descriptive and anatycal study

ط.د: أسماء بوسعيد*

المركز الجامعي مغنية الجزائر

مخبر المعالجة الآلية للغة العربية بجامعة تلمسان

bousaid.asma@cumaghnia.dz

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٣/٠١/٠٢

تاريخ القبول: ٢٠٢٤/٠١/١٩

النشر:٢٠٢٤/٠٧/١٨

ملخص:

لقد أبدع العرب القدامى في مجال اللّغة والشّعر والبلاغة وتفوّقوا في ذلك على العديد من الأمّم، وممّا لاشكّ فيه أنّ الشّعر العربيّ لم يتوقّف عند مبنى القصيدة بل أحاط أيضا بجانب المعنى، فطرح العديد من الأسئلة الفلسفيّة والفكريّة، خاصّة في العصر العباسيّ.

ومن ألمع شعراء هذا العصر الشّاعر أبو العلاء المعرّي، والذّي لم يصلنا سوى النزر البسيط من أعماله على غرار "سقط الزند" و"لزوم ما لا يلزم" إلّا أنّ ظلال القلق الوجودي خيّمت عليها بقوّة، وعكست مدى اطّلاعه على مختلف الفلسفات والعقائد والمذاهب الدّينيّة السّائدة في عصره، كما أبانت عن تمرّده عليها.

ولعلّ أبرز الأسئلة الأنطولوجيّة التّي سبّبها هذا القلق للشّاعر أبي العلاء المعرّي في لزومياته لازالت تهم الشعراء والفلاسفة المعاصرين، وعليه تسعى هذه الورقة البحثيّة إلى تقفي رؤى الشاعر المختلفة حول الحياة والموت والناس والحكام، وذلك بالاعتماد على آليات الوصف والتحليل، من خلال الإجابة عن التساؤل الآتي: كيف تشكل فكر أبي العلاء المعري وماهي أبرز القضايا الوجودية التي أثارها في ديوانه الضخم لزوم ما لا يلزم؟

الكلمات المفتاحية: أصول الفكر؛ هواجس الفكر؛ فلسفة؛ لزوم ما لا يلزم؛ أبو العلاء المعري.

Abstract :

The ancient arabs exelled in the field of language ; poetry and rhetoric ; and execlled in that over many nations ; their poetry raised many philosophical questions ; especialy in the Abbasid era.

One of the most prominent poets of this era is Abu Al Alaa Al Ma'ari ; who was presented in this poems many philosophical issues ; and he was expressed his different visions of life and death ; people and rulers.

so ; this research paper will try to reveal using the tools of decription and analysis.

It will try to answer the following question : how did the thought of Al Ma'ari form and what are his intellectual obsessions in his book « luzumiyat » ?

KeyWords: origins of thought thought obsessions ; philosophy ; luzumiyat ; Abu Al Alaa Al Ma'ari

* ط.د: أسماء بوسعيد *bousaid.asma@cumaghnia.dz*

المقدمة:

يعد العصر العباسي أهم فترة تاريخية للعرب، حيث هُيِّأت فيه جميع الظروف لنشاط الحركة العلمية، ومن تم تطورت مختلف العلوم فأنار العباسيون على غيرهم من الأمم بما بلغوه من حضارة وعلم، ومن أبرز العوامل التي ساعدت على ذلك كانت حركة الترجمة الواسعة من عدة لغات على سبيل الفارسية واليونانية إلى العربية، وبالتالي استفاد المسلمون من هذه الثقافات الوافدة، كذلك ساهمت الحريات التي أُطلِق عنانها من طرف الحكام على التفكير والتعبير دون قيود، فكانت النتيجة أن تعددت المذاهب الدينية وتنوعت الرؤى والأفكار. انعكست هذه التيارات الفكرية والفلسفية والدينية على الشعر العباسي، وبرزت أسماء كثيرة لازالت تشكل مادة خصبة للاهتمام والدراسة، أمثال الشاعر الفذ أبي العلاء المعري، حيث خلّف إرثا أدبيا ضخما بالرغم من ضياع جزء مهم منه، إلا أنه أسال حبر النقاد والدارسين من العرب والمستشرقين على حد سواء.

وعليه تروم دراستنا هذه اقتفاء آثار الفكر والفلسفة العلائيين من خلال ديوان لزوم ما لا يلزم الضخم، وتبيان مصادرهما، لما زخرت به –أي اللزوميات– من تفرد في الطرح وتجسيد لمعنى الحرية في التفكير والتعبير معا.

تمثل لزوميات المعري ذخيرة لذاته، فقد استلم فيها ضمير المتكلم التعبير في أغلب الأحيان، ليكشف لنا عن إحساس قوي بالذات، وما يراودها من قلق وشكوك ورفض للموروثات، تسببت مجموعة من الظروف أحاطت بالشاعر في خلقها لديه.

فما هي الملامح الفكرية والنفسية التي شكلت لزوميات أبي العلاء؟ وما هي أهم منابعها؟ وفيم تمثلت هواجسه ومخاوفه؟

I. المنابع الدينية والفلسفية للزوميات أبي العلاء المعري:

١. اطلاع أبي العلاء المعري على الديانات السماوية:

يمثل الدين الإسلامي دين المجتمع العباسي أي دين دولة الخلافة الإسلامية العباسية، إلا أن الحركة العلمية الواسعة في هذا العصر قد ساعدت على اطلاع شعرائه ومفكريه على عدة ديانات وعقائد أخرى سماوية وغير سماوية، كما هيّأت لهم الجو لبروز توجهات فكرية ومذاهب دينية جديدة.

وفي هذا السياق برز الشاعر أبو العلاء المعري من خلال لزومياته مفصحا عن تشعب معارفه الدينية، فقد نهل علوم اللغة العربية وقرأ القرآن بحكم الجو العائلي الذي ربي فيه، حيث روى عنه ابن الوردي أنه: "بعد أن تتلمذ أبو العلاء عند أبيه، وقرأ القرآن على أئمة من شيوخ القراءات وسمع الحديث من عند أبيه، وسمع عن جماعة من أصحاب ابن خالويه ظهرت نجابته وفطنته، ما جعل والده يمضي به إلى حلب حيث أخواله "بنو سبيكة" إذ تلقى النحو عن إمام العربية في حلب محمد بن عبد الله بن سعد النحوي" (المجيد، ١٩٦٥م، صفحة ٢٠٦)

وقد أبانت "رسالة الغفران" للمعري عن ثقافته الإسلامية عندما تحدث عن ثنائيات الجنة والنار، الدنيا والآخرة، الجزاء والعقاب وهي مفاهيم ومصطلحات إسلامية، كما أقصى أي شاعر زنديق ماجن من الجنة واستبعد كذلك كل الشعراء الأمويين والعباسيين منها، ليجعلها حكرا على الصحابة وبعض شعراء العصرين الجاهلي والإسلامي، حيث "أشار إلى ما جاء عن الجن في سورتي الجن والأحقاف، كما أنه استأنس بآيات النعيم والآخرة، وسمى دار العذاب في عالمه بأسمائها القرآنية وهي النار، الجحيم وجهنم، واستعمل أيضا السعير والزبانية والأغلال والسلاسل" (الخضر، ١٩٩٩، صفحة ٢١٦)

كما أشار في لزومياته إلى قدرة الله عز وجل الشاملة والكاملة، بألفاظ من أسماء الله الحسنى الواردة في القرآن الكريم، يقول:

أرى زمنا تقادم غير فان **** فسبحان المهيمن ذي الكمال (المعري، ١٩٦١م، صفحة ٣٤١)

وفي سياق ديني آخر، فإن أبا العلاء قد انخرط في الجدل الذي دار حول أصل الديانات السماوية إن كان واحدا أم متعددا، ولماذا تباينت أحكامها إن كان لها نفس المصدر، فرأى المعري بأن الاختلاف لم يقع في الأحكام فقط بل وقع في العقائد أيضا، وهذه الأخيرة لا يعمها النسخ، أي أنه كان مطلعا على رأي المتكلمين المسلمين ثم خالفه.

"وقد تكرر حديثه عن الجدل الذي كان قائما بين الأديان، ويترتب عليه أن مصدرها ليس واحدا، وإلا لما اختلفت، فاختلافها دليل على تعدد واضعيها، وهذا الاختلاف يرده المتكلمون المسلمون إلى النسخ الذي يتصل عندهم بقاعدة تغير الأحكام مع تغير الأزمان" (العلوي، ١٩٩٠م، صفحة ١٢)

وفي إحدى لزومياته يقول:

كل الذي تحكون عن مولاكم **** كذب، أتاكم عن يهود يحبّر (المعري، ١٩٦١م، صفحة ٤٤٨)

يخاطب أبو العلاء في هذا البيت المسلمين، ويدعي بأنهم أخذوا تعاليم دينهم عن اليهود، وبأن اليهود كذبوا على الله، –وبصرف النظر عنه الأحكام التي أطلقها– يدل كلامه على أنه كان مهتما بكلتا الديانتين، وهذا الدور الذي قام به من خلال مقارنته للديانات السماوية، يؤكد على ذكائه وقدرته على ربط ما تعلمه، ليخرج بفكرة وحكم جديدين، ومقارنة الأديان هو علم حديث يعود إلى القرن الماضي فقط.

ويقول في لزومية أخرى:

عجبا للمسيح بين أناس، ** وإلى الله والد نسبوه**

أسلمته إلى اليهود النصارى،** وأقروا بأنهم صلبوه**

يشفق الحازم اللبيب علة الط** فل، إذا ما لداته ضربوه** (المعري، ١٩٦٢م، صفحة ٦٠٩)

تبرز سخرية الشاعر أبي العلاء في هذه الأبيات من معتقد المسيحيين الذين جعلوا لله عز وجل ابنا، فيستغرب من كون هذا الوالد –وهو الإله في الديانة المسيحية– لا يحرك ساكنا من أجل ابنه المسيح الذي صلب، وأبو العلاء يرى أن ما يناسب العقل هو أن الوالد يدافع عن ابنه.

ويمكن من خلال ما سبق، أن نكشف على اطلاع أبي العلاء المعري بجميع الديانات السماوية.

٢. اطلاع أبي العلاء المعري على المذاهب الدينية السائدة في عصره:

لقد كان لاتساع الرقعة الجغرافية لبلاد المسلمين، واختلاطهم بأجناس وحضارات مختلفة أثر كبير فيما وصلت إليه الفلسفة الإسلامية من تنوع مذهبي، وسنحاول اقتفاء أفكار بعض هذه المذاهب في لزوميات أبي العلاء المعري، يقول في إحدى لزومياته:

زكوا على مذهب الكوفي في أرضكم** وجانبوا أرضه في مسكر طبخا** (المعري، ١٩٦١م، صفحة ٣٠٧)

ففي الشطر الأول من البيت أبدى رأيه في الزكاة، وهي ركن من أركان الإسلام، حيث رآها أمرا محبذا مطلوبا، بينما أشار في الشطر الثاني إلى إباحة شرب الخمر، وهذا على مذهب الكوفي الذي أراد به أبا حنيفة صاحب المذهب الحنفي.

إضافة إلى المذهب الحنفي، فقد تطرق أبو العلاء إلى ما أتى به الشيعة، بحيث سخر من معتقداتهم، واتهمهم بارتكاب المحرمات اتكالا منهم على شفاعة علي –رضي الله عنه– يوم القيامة، حيث قال في لزومية رائية:

وما صح للمرء المحصل أنه** بكوفان قبر، للإمام، يزار** (المعري، ١٩٦١م، صفحة ٤٦٧)

ففي هذه اللزومية أنكر أن يكون الإمام علي مدفونا بالنجف، ويقصد بكوفان الكوفة، أي أنه هدم الأساس الذي قامت عليه إحدى الفرق الشيعية وهي فرقة الإثناعشر.

ونجد كذلك أنه هاجم الأشاعرة وأهل السنة، وتحدث عن صراعهم مع الشيعة بشأن الصحابة والخلفاء، حيث قال في رائية أخرى:

لما تولى يزيد الأمر هان على** معاشر كونه من قبيل في عمر** (المعري، ١٩٦١م، صفحة ٥٣٥)

والمقصود في هذه اللزومية يزيد بن معاوية الخليفة الأموي الثاني، وعمر بن الخطاب–رضي الله عنه– وهو ثاني الخلفاء الراشدين.

هذا وقد ظهر اطلاعه على فلسفة ابن سينا كذلك، وذلك من خلال تشكيكه في يوم القيامة والبعث من جديد، حيث رأى أن الموتى إذا أعيد إحياؤهم من جديد لن تتسع الأرض لهم، ولن يجدوا مكانا يكفيهم، قال في إحدى لزومياته:

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة**** وحُقَّ لسكان البسيطة أن يبكوا (المعري، ١٩٦٢م، صفحة ٢١٦)

"وقد استند أبو العلاء في إنكاره ليوم البعث على برهان حسي من شاكلة برهان ابن سينا في رسالة المعاد، وقد كرر هذا البرهان في لزوميتين، وفي لزوميات أخرى عبر عنه بالنظم العادي كقناعة دون أن يتوسع بالبراهين التي لا تسمح بها طبيعة التعبير الشعري، لا سيما المقفى الموزون" (العلوي، ١٩٩٠م، صفحة ١٥)، حيث قال:

يحطمنا ريب الزمان، كأننا**** زجاج، ولكن لا يعاد له سبك (المعري، ١٩٦٢م، صفحة ٢١٦)

بمعنى أن الزجاج عندما يتكسر، لا يعاد مسبوكا كما كان، وهكذا الإنسان عندما يموت لا يبعث من جديد.

ويبدو اطلاعه على فلسفة ابن سينا أيضا من خلال إقراره بأزلية هذا الكون، حيث قال:

خالق لا يشك فيه، قديم،**** وزمان، على الأنام، تقادم

جائز أن يكون آدم، هذا،**** قبله آدم على إثر آدم (المعري، ١٩٦٢م، صفحة ٤٨٨)

وقال أيضا:

لو طار جبريل بقية عمره**** من الدهر ما استطاع الخروج (المعري، ١٩٦١م، صفحة ٢٤٥)

إذن حسب المعري، جبريل–عليه السلام– لن يستطيع الخروج من الزمن لأنه غير متناه، كالعالم تماما، والزمان وجد بوجود العالم، فمتى وجد العالم وجد الزمان، وهذا يعتبر قول الفلاسفة المسلمين أيضا أمثال الفرابي وابن رشد وابن سينا، فهم يقولون بأزلية العالم وليس بأنه خلق من عدم.

ولابد أن نشير أيضا إلى اعتماده على العقل في البرهنة على كل المسائل التي ناقشها، حيث قال:

يرتجى الناس أن يقوم إمام**** ناطق، في الكتيبة الخرساء

كذب الظن، لا إمام سوى العقل**** مشيرا في صبحه والمساء (المعري، ١٩٦١م، صفحة ٢٢)

يقصد بالكتيبة الخرساء الكتيبة التي لا يسمع فيها صوت لكثرة الجلبة، أي لن يقوم إمام مرشد وسط من لا يعملون عقولهم ويكثرون اللغو فقط، فهو يعتبر العقل السبيل الوحيد للمعرفة، وأن الظن لا قيمة له، ويحث على إعمال العقل والأخذ به، وهذا ما ذهب إليه الفلاسفة المسلمون أمثال ابن الراوندي وابن سينا.

٣. اطلاع أبي العلاء المعري على الفلسفة اليونانية:

أشارت العديد من أبيات اللزوميات إلى مجموعة من الأعلام والأفكار الفلسفية اليونانية، حيث ذكر الطبيب اليوناني المشهور ب"قراط" إضافة إلى الفيلسوف اليوناني "سقراط"، يقول أبو العلاء:

وما دفعت حكماء الرجال**** حتفا، بحكمة بقراطها

ولكن يجيء قضاء يريك** أخا غيّها مثل سقراطها** (المعري، ١٩٦٢م، صفحة ١١١)

ويقول أيضا:

أين بقراط، والمقلد جالي** نوس؟ هيهات أن يعيش طبيب** (المعري، ١٩٦١م، صفحة ١١١)

يقر البيت بحتمية الموت، ويذكرنا بالسابقين الذين ماتوا، خاصة منهم الأطباء، كجالينوس الطبيب اليوناني المعروف بحيث لم يتمكن من صد الموت حتى وهو طبيب.

يقول طه حسين في سياق آخر عن فلسفة المعري: "ليست هذه الفلسفة، إلا فلسفة أبيقور" (حسين، ٢٠١٢م، صفحة ٤٥)، **وأبيقور فيلسوف يوناني، تقوم فلسفته على إنكار العلة الغائية التي يؤمن بها العديد من الفلاسفة وأصحاب الديانات المختلفة، حيث يرون أن غاية الله في الخلق هي التكليف.**

وحجة طه حسين في ذلك "أن الفلسفة الأبيقورية قد وصلت إلى أبي العلاء عن طريق الطب اليوناني وطب جالينوس، إذ كان أبو العلاء شديد الإعجاب بأعمال هذا الأخير، فانكب على ما ترجم من أعماله إلى العربية" (حسين، ٢٠١٢م، صفحة ٤٥)

"وقد برزت كذلك مصطلحات الفلسفة والمنطق والطب، ومن ذلك مصطلح فيلسوف بمعنى محب للحكمة، كما استخدمها أبو العلاء في مواضع مختلفة من شعره" (زعيميان، ٢٠٠٣، صفحة ١٦٤)، **كما في قوله:**

ألم تر أن جسمي فيه فضل،** وجسمك قد أضر به الشسوف** (المعري، ١٩٦٢م، صفحة ١٥٧)

والشسوف مصطلح فلسفي يوناني يقصد به الضمور، أي بالرغم من قلة طعامه إلا أنه معافى، ومن يخاطبه رغم كثرة طعامه هزيل.

٤. نزعة أبي العلاء التشاؤمية:

تأثر أبو العلاء منذ صغره بوضعه الصحي، فعن ياقوت الحموي أنه "اعتل في سنته الرابعة بعلة الجذري" (المجيد، ١٩٦٥م، صفحة ٥٥٨)، **والتي أصيب على إثرها بخدوش وحفر في وجهه فأصبح كفيفا.**

ساعدت هذه الحالة الصحية لأبي العلاء على تبنيه النزعة التشاؤمية في الحياة، وعلى انعزاله عن الناس مدة أربعين سنة الأخيرة من حياته، فأصبح يرى الناس مصدرا للبؤس والشر، يقول في إحدى لزومياته:

تخيّر فإما وحدة مثل ميتة** وإما جليس في الحياة منافق** (المعري، ١٩٦٢م، صفحة ١٧٨)

كما كان للأوضاع السياسية والاجتماعية التي سادت في عصره الأثر البالغ على تبنيه النزعة التشاؤمية، حيث انتقد السياسة والمجتمع والدين والاقتصاد وحتى الأدب، ونزعته التشاؤمية هذه أيضا كانت سببا من أسباب نزعته التأملية والفلسفية.

II. ثورة أبي العلاء على الرواسب الفكرية:

لقد امتدت تأملات المعري لتطول جميع الديانات السماوية، مبررا ذلك بعجز الناس عن فهمها فهما حقيقيا باستعمال أدوات التفكير، فرفض سلوكات بعض المتدينين، لأنه كان يفضل الامتثال للدين بعد تفكر وتدبر، لا الامتثال لتأدية الفرائض اليومية دون حرص على الروحانيات والمعاملات والسلوكات، حيث يقول:

دين وكفر وأنباء تُقصّ، وفر**** قان ينصّ وتوراة، وإنجيل

في كل جيل أباطيل يدان بها**** فهل تفرد يوما بالهدى جيل؟ (المعري، ١٩٦٢م، صفحة ٢٦٨)

عبر أبو العلاء في هذين البيتين عن حيرته في الاختيار بين الديانات السماوية، فهي جميعها تطرح العديد من المعارف والأفكار، إلا أنها تختلف في الطرح والمضمون أحيانا، مما يجعله قلقا محتارا في أي منها يختار وأي منها يترك، يقول أيضا:

أُخبرتَ، عن كتبك أعجوبة**** ورُبّ مينٍ ضمنته الكتب (المعري، ١٩٦١م، صفحة ١٨٦)

ففي كل ديانة إلا ويجد ما يصدقه وما لا يصدقه ف–حسبه– قد تتضمن هذه الكتب كذبا وبهتانا، كما احتار بين سيرتي الفرس والهند ففي كل منهما كان يجد ما يقبله عقله وما يرفضه أيضا، فيروادة القلق ويصبح عاجزا عن الفصل بينها.

وانتقد الشرائع الدينية أيضا، لا من حيث تصوراتها الميتافيزيقية، بل انتقدها معتبرا إياها مصدرا للخلاف والعداوة بين الناس، نتيجة للتعصب ورفض التعايش مع الآخر، يقول:

إن الشرائع قد ألقت بنا إحنا،**** وأودعتنا أفانين العداوات (المعري، ١٩٦١م، صفحة ٢٢٨)

كذلك لم يسلم الناس من انتقاداته خاصة من يدعون العلم بشؤون الله عز وجل، ودعاهم إلى مناقشته، حيث كان يرى في نفسه القدرة على إثبات كذبهم، يقول:

يخبرونك عن رب العلى كذبا،**** وما درى بشؤون الله إنسان

فألسنوني أبيّن مشكلاتكم،**** أم ليس فيكم، لأهل الحق، إلسان (المعري، ١٩٦٢م، صفحة ٥٠١)

"يرى الدكتور شوقي ضيف أن تأثر المعري بأقوال الفلاسفة ولد عنده بعض الشكوك التي أدت به إلى الانحلال في بداية عمره، ثم رجع في آخر عمره واعتذر" (الفلاحي، ٢٠٠٨، الصفحات ١٨٨-١٨٩)

وقد لفتت الأخلاق في مجتمع الشاعر أبي العلاء انتباهه أيضا، فوجدها متوارثة، وعبر عن دناءتها في صورة محسوسة، وهي أن الناس لو غربلوا في غربال لما بقي منهم أحد فيه، وذلك لسوء أخلاقهم، يقول:

مضى الزمان ونفس الحي مولعة**** بالشر، من قبل هابيل وقابيل

لو غربل الناس كيما يعدموا سقطا**** لما تحصل شيء في الغرابيل (المعري، ١٩٦٢م، صفحة ٣٣٦)

ونبذ أبو العلاء كل تفرقة بين الناس على أساس العرق، داعيا إلى المساواة بين البشر، وهذه دعوة نادت بها النزعات الإنسانية مؤخرا، فالأجدر هو الاهتمام بالإنسان دون تفرقة مهما كانت أسسها، يقول:

لا يفخرن الهاشمي على**** امرئ من آل بربر

فالحق يحلف: ما علي** **عنده إلا كقنبر** (المعري، ١٩٦١م، صفحة ٦٠٦)

كما ساءه أن يتحدث الناس عن بعضهم بعض بسوء، ورأى بأن النميمة لا تضره، فهي شبيهة بالسهم الذي يلقى في التراب فلا يضره، يقول:

تكذب قوم يستعيرون سؤددا** **وتلك سجايا للنفوس النواقص**

إذا مت لم أحفل بما قال عائبي** **وهل ضرّ تربا رميه بالمشاقص** (المعري، ١٩٦٢م، صفحة ٧٦)

ويقول أيضا عن الأصحاب في مقام الأذية:

لم تلق في الأيام إلا صاحبا** **تأذى به، طول الحياة وتألم**

ويعدّ كونك، في الزمان بلية،** **فاصبر لها، فكذلك هذا العالم** (المعري، ١٩٦١م، صفحة ٤١١)

يحيلنا هذان البيتان إلى قول سارتر:"الغير هو الجحيم"، كذلك يرى أبو العلاء الآخرين مصدرا للأذية والبلاء، وهي فكرة تزخر العديد من أبيات اللزوميات بها.

ثار أبو العلاء على عادات وتقاليد مجتمعه، حيث وجد نفسه ساذجا لو اتبعها كما هي عليه، يقول في إحدى لزومياته ناعتا أبناء مجتمعه بالضالين:

إن الضلالة كالغريزة فيكم،** **يأوي إليها كهلكم وفتاكم** (المعري، ١٩٦١م، صفحة ٤١٢)

وقد رفض أبو العلاء أن يتزوج، رفض أن تكون له ماهية محددة سابقة لوجوده الإنساني، يقول في إحدى لزومياته:

ولم أعرض عن اللذات، إلا** **لأن خيارها عني خَنَسنَه** (المعري، ١٩٦٢م، صفحة ٥٢٧)

فشعور أبي العلاء بالمسؤولية في اتخاذ قرار الزواج سبب له قلقا وجوديا، فقد وجد نفسه وجها لوجه مع امكانياته، ولا بد أن يختار ما يرغب فيه ويلغي ما لا يرغب فيه أي الزواج.

كما أنه لم يرفض الزواج فحسب، بل رفض الإنجاب، حتى لمن تزوج مخافة الوقوع في الرذيلة، يقول:

نصحتك لا تنكح، فإن خفت مأثما** **فأعرس، ولا تنسل، فذلك أحزم** (المعري، ١٩٦٢م، صفحة ٣٨١)

يمكن إرجاع هذا الرفض، إلى محدودية إمكاناته لأنه كان كفيفا زاهدا في مأكله وملبسه، أي أنه واجه إمكاناته في العالم وحدد ماهيته بالنظر إلى عجزه.

وقد انتقد أبو العلاء الساسة والرعية آنذاك، ولكن انتقاده لم يكن انتقادا عاديا ومبتذلا وإنما كان مرهفا بالحس الوجودي، حيث رأى أن جور الحكام لم يكن لولا رضوخ الرعية، وطاعتهم لحكامهم بشكل مفرط، وأن الانتهازيين هم من يصنعون الطغاة عندما يصبحون بطانة لهم، يقول في لزومية من لزومياته:

كذب الذي سمى الملك قاهرا،** **نحن الأذلة، والمليك القاهر** (المعري، ١٩٦١م، صفحة ٤٤٩)

بالإضافة إلى ذمه لساسة عصره عدة مرات في لزومياته، فإنه استغرب ممن يدفعون الضرائب في العصر العباسي، لأنه لم يجد مبررا لذلك مادام الحكام لا يهتمون بالرعية، ولا ينفقون عليها، يقول:

وأرى ملوكا لا تحوط رعية،**** **فعلام تؤخذ جزيةٌ ومكوسُ؟** (المعري، ١٩٦٢م، صفحة ٣٢)

فهو ركز على فكرة واحدة، كون الرعية هي من تحدد وتقرر إن أرادت، وبين في لزومية أخرى أن الناس أظلم لأنفسهم من حكامهم، فيقول:

أعاذل، إن ظلمتنا الملوك،**** **فنحن على ضعفنا أظلم** (المعري، ١٩٦٢م، صفحة ٤١٤)

وقد دعى المعري إلى ثورة، يمكننا أن نعتبرها ثورة ثقافية للتخلص من هذه التصرفات، ولكنه رمز إليها بالطوفان، يقول:

والأرض للطوفان مشتاقة**** **لعلها من درن تغسل** (المعري، ١٩٦٢م، صفحة ٢٨١)

نخلُصُ إذن، إلى أن أبا العلاء قد تمرد على كل موروث تعارض مع منطقه، فشكل فكره بعيدا عن الرواسب والتقاليد والتأثيرات الخارجية، ليكون بذلك خالقا لذاته ومحددا لها.

ويمكن القول أيضا بأن هذه الثورة العلائية هي وليدة الأوضاع الاجتماعية والسياسية التي مكنته عزلته من اقتناصها وتعريتها.

III. الصراعات الفلسفية والنفسية في لزوميات أبي العلاء:

مما لا شك فيه أن حرية التفكير تقذف بصاحبها في بحر القلق، وبذلك تراوده مجموعة من التساؤلات لها علاقة بالإنسان والغاية من وجوده، وعن مصيره بعد الموت، وغيرها من التساؤلات التي طرحها المعري في لزومياته.

إن أول ما أثار انتباه أبي العلاء هو قدومه للحياة غير مخيّر، حيث وجد نفسه مجبرا على مواجهة عالم لم يعرفه ولم يقرر أن يكون فيه، وقد اعتبر قدومه للحياة جناية جناها عليه والداه، يقول في إحدى لزومياته:

وردت إلى دار المصائب، مجبرا**** **وأصبحت فيها ليس يعجبني النقل** (المعري، ١٩٦٢م، صفحة ٢٥٩)

وجد أبو العلاء نفسه وجها لوجه مع المرض والوحدة والعزلة، في عالم لم يختر أن يكون فيه، ولم يفهم الغاية من وجوده فيه مهما أعمل عقله، ولم يكتف بهذا التساؤل، بل انتقل إلى وصف رتابة الحياة، التي تجعل الإنسان رهين الدنيا اللئيمة، يقول في لزومية من لزومياته متحدثا عن تداول الأيام:

تداولني صبح ومسي وحندس،**** **ومرّ عليّ اليوم والغد والأمسُ**

أسير عن الدنيا، وما أنا ذاكر**** **لها بسلام، إنّ أحداثها حمسُ** (المعري، ١٩٦٢م، صفحة ٥)

كل هذا العناء والشقاء، إلا أن الإنسان سيواجه تعبا أكبر عندما يصل إلى مرحلة الشيخوخة، فالإنسان – حسبه– لا يتعب فقط منذ لحظة ولادته بل منذ أن تنفخ فيه الروح، يقول في لزومية أخرى مصورا بؤسه ويأسه:

إذا ما أسنّ الشيخ أقصاه أهله،**** **وجار عليه النجل والعبد والعرسُ**

وما برح الإنسان في البؤس مذ جرت**** **به الرّوح، لا مذ زال عن رأسه الغرسُ** (المعري، ١٩٦٢م، صفحة ٧)

ولكننا إذا عدنا لحياته وجدناه هو من فرض على نفسه الشقاء والبؤس، فلا أحد غيره تسبب في ذلك، حيث جعل نفسه رهين سجون ثلاثة، يقول في إحدى لزومياته:

أراني في الثلاثة من سجوني**** فلا تسأل عن الخبر النبيث

لفقدي ناظري ولزوم بيتي**** وكون النفس في الجسد الخبيث (المعري، ١٩٦١م، صفحة ٢٤٩)

"والذي كان يغيظ أبا العلاء إلى أقصى حدود الغيظ أنه كان يفكر ويستقصي، فيرى أن نفسه سجينة في جسمه بأدق معاني هذه الكلمة وأقساها، قد أدخلت السجن مكرهة، وأخرجت منه مكرهة، لم تسأل أتريد هذا الدخول أم ترفضه، ولم تستشر أترغب في هذا الخروج أم لا، بل هي لا تذكر أنها جنت قبل دخول هذا السجن من الإثم ما يضطرها إلى دخوله ولقاء العذاب فيه إن كان شرا، ولا تذكر أنها أتت من الصالحات بما يثيبها بدخوله والاستمتاع باللذات فيه إن كان خيرا" (حسين، ١٩٦٤م، صفحة ٣٦)

هذه الآلام التي عاشها في سجنه الخاص، بتساؤلاته المتكررة من أين أتيت؟ ولم وجدت في هذه الحياة؟ تعبّر فعلا عن هواجس نفسية وقلق وجودي كان يعاني منهم أبو العلاء.

وقد أحدثت نزعته التشاؤمية ردود أفعال شديدة في حياته ونظرته للحياة والناس، فأصبح يصور الحياة في صورة قاتمة، فما هي إلا أطوار من البلاء والشقاء، حيث يقول:

وقد بلونا العيش أطواره**** فما وجدنا فيه غير الشقاء (المعري، ١٩٦١م، صفحة ٦٧)

وأخذ بذلك يتجرع آلام الحياة القاتلة، يقول أيضا:

أرى جرع الحياة أمرّ شيء**** فشاهد صدق ذلك، إذ تقاء (المعري، ١٩٦١م، صفحة ٥٥)

نبرة التشاؤم العلائية تدفع به نحو الألم الحاد والحزن، وقد دفعه عجزه الجسدي إلى تفضيل الموت على الحياة، لكي يستريح الجسم من العذاب المتجدد في الدنيا، يقول:

والعيش داء وموت المرء عافية**** إن داؤه بتواري شخصه حسما (المعري، ١٩٦٢م، صفحة ٢١٩)

كما آمن أبو العلاء بأن الموت سنة الحياة، فهي داء يصيب كل مخلوق ولا علاج له في الطب، لا ينجو منه أحد، ولكنه لطف وراحة من الله، حيث يقول:

لله لطف خفي في بريته**** أعيا دواء كل نطيس (المعري، ١٩٦١م، صفحة ٥٧١)

هذا وقد تساءل أبو العلاء عن مصير الروح عندما تغادر الجسد، كما أفرط أبو العلاء في الاحتكام إلى عقله، لدرجة أنه استغرب صعود جسمه إلى السماء بعد موته، يقول في إحدى لزومياته:

وكيف صعودي إلى**** الثريا بلا سلّم؟ (المعري، ١٩٦٢م، صفحة ٤٧٩)

ثم إنه شبه الأرض بالمقبرة الكبيرة، مستغربا مما آلت إليه القبور القديمة من عهد عاد، إن كانت القبور في زمنه تملأ الأرض، حيث يقول:

صاحٍ، هذه قبورنا تملأ الرح**** ب فأين القبور من عهد عاد

خفّف الوطء ما أظن أديم ال**** أرض إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وإن قدم العهد**** هوان الآباء والأجداد (المعري، ١٩٦١م، صفحة ٣٧١)

يرى أبو العلاء في هذه الأبيات أن الجدير هو احترام الأموات، فمن القبيح إهانتهم بكثرة وطء الأرض حتى وإن طال الزمن على دفنهم، فهو يظن بأن تراب الأرض ليس إلا أجساد الأسلاف السابقين.

وواصل في لزومية أخرى متعجبا من الكم الهائل للجثامين التي سكنت الأرض ولازالت تسكنه، يقول:

عجبت لقبر فيه ضيق تزاحمت،**** على الكون فيه، العرب والروم والفرس
متى يأكل الجثمان يسكنه غيره،**** يد الدهر، حرسا جاء من بعده حرس (المعري، ١٩٦٢م، صفحة ٧)

وقد كان يشفق على الموتى، ويتصور عجزهم في أن يدفعوا عن أنفسهم، وقصورهم عن أن يردوا ما يصب عليهم من ظلم، فرحمهم وأشفق عليهم، حيث يقول:

لا تظلموا الموتى وإن طال المدى**** إني أخاف عليكم أن تلتقوا (المعري، ١٩٦٢م، صفحة ١٨٨)

كما رأى أن الموت نعمة وراحة لا يبلغها سوى المحظوظين، يقول:

الموت حظ لمن تأمّله**** وليس في العيش أن تؤمل حظ (المعري، ١٩٦٢م، صفحة ١١٥)

وبقراءة كل هذه الهواجس الفكرية التي أثارت المعري، فإن إفراطه في استعمال عقله، ما هو إلا تحقيق لوجود أصيل، فهو واجه إمكاناته الجسدية المحدودة فرفض الزواج والإنجاب وفضّل العزلة والموت، ولكنه واجه إمكاناته العقلية واستغلها، ولم يتوقف لبرهة عن التفكير والتدبر والتأمل حتى أصيب بقلق أرهقه، متسائلا دائما إن كانت الحياة تستحق أن تعاش؟ مع أن الإنسان مقبل على الموت بعد حياة عبثية قصيرة؟ ما الجدوى مما يقدم عليه الإنسان؟ ثم يجيب نفسه أنه لا جدوى ولا منفعة من ذلك، فيصبح إنسانا لا يفرح عندما يحقق أمرا معينا، ثم إنه لا يندم على أي شيء لم يستطع تحقيقه، فيصبح عابثا في الحياة، محققا بذلك وجودا حقيقيا أصيلا.

تقود النزعة التشاؤمية صاحبها نحو فقدان أي معنى للحياة، وتضعف ارتباط الفرد بعائلته ومجتمعه وثقافته، ومن دوافع هذه النزعة لدى المعري هو عدم قدرته على الوصول إلى اليقين، يقول في إحدى لزومياته:

سألتموني فأعيتني إجابتكم**** من ادعى إنه دار فقد كذبا (المعري، ١٩٦٢م، صفحة ١١٨)

ويتساءل عن سبب إحراق الهنود للميت، إن كان خوفا من عذاب القبر أم لسبب آخر، ليؤكد شكه مرة أخرى، يقول:

إذا أحرق الهندي بالنار نفسه،**** فلم يبق نحضٌ للتراب ولا عظم
فهل هو خاش من نكير ومنكر،**** وضغطة قبر لا يقوم لها نظم؟ (المعري، ١٩٦٢م، صفحة ٣٨٠)

ويكني أيضا عن أزلية الكون، من خلال إنكاره للبعث، يقول:

ولو طار جبريل بقية عمره عن**** الدهر ما استطاع الخروج من الدهر (المعري، ١٩٦١م، صفحة ٥١٩)

كما تساءل عن الحشر، وعن الروح، فعقله لم يستوعب ذلك، بقول:

لا حسّ للجسم بعد الروح نعلمه،**** **فهل تحس إذا بانت عن الجسد؟** (المعري، ١٩٦١م، صفحة ٣٧٤)

"وقد كان أبو العلاء يستطيع أن يمجد الله في كلام سهل مرسل فيريح نفسه من هذا الجهد الثقيل" (حسين، ١٩٦٤م، صفحة ١٠٧)

أما عن الحرية فقد كان لها واسع الأثر في لزومياته، فقد ذمّ أبو العلاء القمع، ومقتل الناس بسبب زلات ألسنهم، يقول:

قد يقتل الحر، وما دينه**** **في طاعة الله، بمكلوم** (المعري، ١٩٦٢م، صفحة ٤٧٤)

والحر هذا قد يكون مفكرا، خالف ما ساد وما راج.

من جهة أخرى نستطيع القول بأن أبا العلاء جسّد مفهوم الحرية، فقال كل ما خطر على باله، وتساءل وشكك بكل صراحة فيما رفضه عقله، وانتقد الموروثات الاجتماعية التي تنافت مع منطقه، "وقد كان أبو العلاء يستطيع أن يمجد الله ويذم في الدنيا، وينقد حياة الناس ويناظر الفلاسفة، ويخاصم الفرق، ويناقش ما جاءت به الأديان في نثر مرسل، أو في شعر سمح حر فيريح نفسه من هذه القيود والأغلال التي تحمّل ثقلها، ويريح قراءه مما يتكلفون من فك القيود ووضع هذه الأغلال عن معانيه" (حسين، ١٩٦٤م، صفحة ١٠٧)

الخاتمة:

في ختام هذه الورقة البحثية نخلص إلى مجموعة من النقاط، هي كالآتي:

- **أبو العلاء المعري شاعر تعددت مصادر فلسفته وتنوعت، منها معرفته بالديانات السماوية وبالمذاهب الدينية السائدة في عصره، إضافة إلى الفسفة اليونانية التي ترجمت في العصر العباسي إلى اللغة العربية.**
- **لم يكن أبو العلاء مجرد ناقل لما تعلمه واكتشفه، بل مثل مدرسة جديدة في حرية التفكير والتعبير معا وتجديد مضمون ومعاني الشعر العربي وفق رؤيته الخاصة.**
- **ديوان لزوم ما لا يلزم للمعري هو ديوان ضخم، يضم حوالي عشرة آلاف بيت شعري، ويكدس جواهر فكرية متعددة ومتنوعة، وهو يمثل أحد أهم الجوانب المشرقة من تاريخ الأدب العربي.**

وبالرغم من كل ما قدّم من دراسات للشعر العربي القديم، إلا أنه يبقى دائما حقلا خصبا قادرا على التجدد والانبعاث وتقديم الإضافة الفكرية للمكتبة العربية والمكتبات العالمية عموما، وبالتالي ضرورة العودة إليه ومراجعته بما وصلت إليه النظريات النقدية المعاصرة باتت ضرورة ملحة.

قائمة المصادر والمراجع:

أبو العلاء المعري. (١٩٦١م). *لزوم ما لا يلزم، ج١* . بيروت: دار صادر.

أبو العلاء المعري. (١٩٦٢م). *لزوم ما لا يلزم، ج٢ .بيروت: دار صادر.*

تغريد زعيميان. (٢٠٠٣). *الآراء الفلسفية عند أبي العلاء وعمر الخيّام.* القاهرة: الدار الثقافية للنشر.

سناء الخضر. (١٩٩٩). *النظرية الخلقية عند أبي العلاء المعري بين الفلسفة والدين.* الاسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر.

طه حسين. (١٩٦٤م). *مع أبي العلاء في سجنه.* القاهرة: دار المعارف.

طه حسين. (٢٠١٢م). *ذكرى أبي العلاء.* القاهرة: مؤسسة هنداوي للنشر والثقافة.

طه حسين، تح: مصطفى السقا، عبد الرحيم محمود، عبد السلام هارون، إبراهيم الأبياري، حامد عبد المجيد. (١٩٦٥م). *ضمن تعريف القدماء بأبي العلاء المعري.* القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر.

هادي العلوي. (١٩٩٠م). *المنتخب من اللزوميات: نقد الدولة والدين والناس.* دمشق: مركز الدراسات والأبحاث الاشتراكية في العالم الغربي.

أحمد علي الفلاحي. (٢٠٠٨م). فلسفة الحياة والدين لدى أبي العلاء المعري. بغداد: مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإنسانية. المجلد الثالث: العدد١٣. تشرين الأول.